تكوين النص الشعرى عند

" حازم القرطاجنى "

للدكتور

حسن احمد البندارى

تكويـــن النـص الشعـرى
عند حازم القرطاجنى

يتردد فى المصادر الأدبية العربية القديمة، عدد من الأفكار النقدية التى تعنى بفحص بناء النص الشعرى، وتلفتالنظر الى تكوينه ، من حيث التماس العناصر المشكلة لمرحلتين اساسيتين من مراحل انشاء القصيـــدة. وهما التخلق المسبب، والتنفيذ الواعى، على نحو مايظهر عند نقاد المشرق كبشر بن المعتمر فى " صحيفته"، والجاحظ فى " البيان والتبيـــن" وابن قتيبة فى " الشعر والشعراء" ، وابن طباطبا فى "عيار الشعـــر" وابن سنان الخفاجى فى " سر الفصاحة " والفارابى فى " قوانين صناعة الشعراء"، وغيرهم. وعند نقاد المغرب مثل ابن عبد ربه فى " العقـــد الفريد"، وابن رشيق فى " العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقـــده " وحازم القرطاجنى فى " منهاج البلغاء وسراج الأدباء".

وفى تقديرى أن الحديث عن نظرة هذا الناقد أو ذاك فى النـــص الشعرى بل النص الأدبى عامة ينبغى أن يخضع لما يسمى بـ " القـــراءة الفاحصة" (١) التى تقصد فى جوهرها الى تغليب مثول النص النقـدى أمام عينى الفاحص ، واستنطاقه بوعى نقدى خاص به عن طريققراءة متعمقة "تكشف عن العلاقات الكائنة فيه، وتضئ جوانبهمن الداخل اضاءة تكشـــف

---

(١) الدكتور محمود الربيعى :- فى نقد الشعر، دار المعارف بمصر ط ١٩٧٣، ومقدمة كتاب حاضر النقد الأدبى (مقالات فى طبيعة الأدب) ص ١٢ ــ ١٣ــدار المعارف ، ١٩٧٥.

عن معناها الأدبى " وبثقافة " لا تعلن عن نفسها فى نحو مباشر فج، وانما تعلن عن نفسها فى صورة فهم افضل للنص الأدبى (والنقدى) أو منحى أدق فى تحليله، أو تقدير أعدل به"(١). وبذلك لا تطفو المعلومات النقدية فوق النص موضع الدراسة، بل يجب أن تنخرط فى نسيجه، وتظهر آثارها فى كيفية التناول وطريقة الفحص.

واذا كان لكل نص نقدى ناضج - وكذلك كل نص ابداعى يتصف بهذه الصفة - صوته المتميز وخصوصيته المنفردة، فانه من غير الطبيعى أن تستخدم القواعد الجاهزة الموروثة، والمبادئ المقررة سلفا استخداما تغليبيا توصف وتحلل ظواهر النص فى ضوئها ، لأن الناقد الحق هو الذى يجتهد فى ابراز خصائص النص المدروس وتعيين امكاناته دون ان يأخذه الحديث فى غيبة منه، وهو الذى كما يقول : مدليتون مرى :" يتوارث احساسا بأن الصوت الداخلى هو الملجأ الذى ينبغى أن يلجأ اليه آخر الأمر"(٢) ذلك ان أهمية المبادئ العامة والتقاليد الثابتة والقواعد المقررة فى النقد، ترجع الى كونها مرتكزات وثوابت، ولكنها لا تغنى عن ذلك الصوت الحميم ولن تمنع سؤالا مثل " وما حاجة الانسان للمبادئ وعنده الصوت الداخلى؟"(٣)، الذي يكون أساس ميل هذا الناقد أو ذاك الى نص بعينه

---

(١) الدكتور محمود الربيعى (الناقد العربى فى مفترق الطرق) مجلة العربى الكويت ص ١٢، فبراير ١٩٨٦.

(٢) ت.س - البوت . مقالاتفى النقد الأدبى ترجمة د/لطيفة الزيات ص٢٦ الانجلو المصرية.

(٣) السابق ص ٣٠.

مما يجعله فى حالة نشاط ايجابى " صادق" ، متعدد التساؤل فى صدق أيضا ، من جهة أن " الانسان " الذى يسائل نفسه فى صدق يسمع أخيرا صوت الله" (١) على حد تعبير ت.س. اليوت : فهذا الاحساس بالصوتالداخلى، أو توظيفه حال عملية الفحص، هو الذى سيفرض نظرته أو فلسفته الخاصة حينئذ فى التكوين والبناء، حتى ولو تلاقت مع جهد صاحبه جهود نقاد اخرين فى بحث ذات الظاهرة.

ـ ٢ ـ

واذا احتكم الدارس الفاحص الى هذه " النظرة الخاصة" حال الوقوف على آراء نقاد المغرب مثل ابن عبد ربه، وابن رشيق، فانه سيجدهم لايكادون يختلفون مع نقاد المشرق امثال : الجاحظ وابن قتيبة وابن طباطبا وغيرهم، ولكنه سيجد اختلافا بين ماقاله هؤلاء وهؤلاء فى تكوين صنعة الشعر، وما قاله ناقد متأخر عنهم هو حازم القرطاجنى (ـ٦٨٤هـ) وقد يراهم متفقين معه فى الرؤية، ولكن جوهرها سيظل ـ رغم هذا ـ محتفظا بالخصوصية والتميز.

وتتمثل خصوصية رؤيته فى أنه بحث صنعة النص فى تكوينين أساسيين، يشتمل كل منهما على " خبرات" متمايزة، وان كانت متصلة مترابطة فيما بينها.

---

(١) السابق ص ٢٨ ، والدكتور ابراهيم حمادة :مقالات فى النقد الأدبى ص ١٧ دار المعارف.

" فالتكوين الأول " يضم أربع خبرات للشاعر يمكن أن نطلق عليها ابتداء" الخبرات المهيئة الممهدة" أو قوى تخلق النص معنى ولفظا و تراكيب قبل صياغته. وهى أصيلة وأساسية من حيث إنها تتعاون فى اتصال وتعاقب على جعل الشاعر ينطلق انطلاقا صحيحا فى التعبير عن تجربته المقصودة. فالخبرة الأولى هى " الخبرة بالبيئة" التى ينشأ وينمو فيها الشاعر. وقد عناها حازم القرطاجنى بقوله : " النشء فى بقعة معتدلة الهواء حسنة الوضع ، طيبة الطعام، أنيقة المناظر، ممتعة من كل ما للأغراض الانسانية به علقة" (١) مفيدا أن ثمة عوامل ومقومات يجب أن تتدخل فى اختيار البيئة ذات تأثير " فسيولوجى" أو مادى ، مثل اعتدال الطبيعة الحافلة بأنواع الغذاء وألوان الطعام الجيد، فينتفى حينئذ الحرمان المادى ، مما يجعله يجعله ، متفرغا ومهيئا من الناحية (السيكلوجية) أو النفسية لرؤية مظاهر الجمال ،ورصد أدلة الابداع الطبيعى المحيطة به. وهذا بدوره يؤدى الى الكشف عن المعانى الشعرية التى تعلق بطاقة الخلق لديه وهى الطبع أو الموهبة الفطرية المتمكنة فى نفسه.

ومن البين أن مجموع هذه المؤثرات المتعاقبة تؤثر فى الشاعر الناشئ جسميا ونفسيا ، بأن تدركها حواسه ، وتعيها نفسه، ويختزنها

---

(١) حازم القرطاجنى: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة ص ٤٠ ـ دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ الطبعة الثانية.

طبعه صورا واضحة المعالم، وتكون قابلة للاستخدام والتوظيف حينما يستدعيها حال عملية صوغ الشعرفى المستقبل ، اذ إن قوة الطبع عندئذ هى (استكمال للنفس فى فهم أسرار الكلام ... فاذا أحاطت بذلك علما قويت على صوغ الكلام عملا) . (١)

كما أن مجموع هذه المؤثرات يمثل تهيئة تدفع : " طبع الناشئ الى الكمال فى صحة اعتبار الكلام وحسن الرؤية فى تفضيله وتقديره ومطابقة ماخارج الذهن به، وايقاع كل جزء منه فى كل نحو ينحى به أحسن مواقعه ، حتى يكون حسن النشء مشبها حسن نشء المتكلم به" (٢) أى أن حصيلة هذه المؤثرات تؤدى الى كمال قوة الطبع أو الموهبة المتمكنة، فينشأ عن هذا الكمال عمل من الشاعر ينحصر فى دقة اختيار اللفظ الملائم للمعنى أو الغرض الشعرى ، وصحة التركيب وسلامته، والتوزيع العادل للقيم الجمالية على وحدات الصياغة وأجزائها ، قصدا الى احداث التأثير فى المتلقى.

ولكن حازما ما يلبث أن ينص على أنه ليس من الضرورى أن يكون هذا النوع من الخبرة سببا فى نضج قوة الطبع الدافعة الى حسن الصياغة وسلامتها ، ذلك لأنه" قد تكون النشأة حسنة على غير هذا النحو وذلك بأن تستجد الأهوية للناشئ، وترتاد له مواقع العزن ومواضع الكلأ والنبات

---

(١) السابق ص ١٩٩

(٢) السابق ص ٤٠ ـ ٤١

الغض ، ولا يخيم به في الموضع الا ريثما يصوح كلؤه ويغيض ماؤه" (١) أي أن مقومات الطبيعة الحسنة من اعتدال الجو وجريان الماء الصافي ووفرة الخضرة الممتعة للنظر ومثول ألوان الغذاء الجيد، لاتمثل قاعدة ثابتة لانضاج الطبع (أو لتتميم الموهبة) ، فقد لاتوفر هذه المقومات فيه بينما قد تنهض بذلك مقومات طبيعية مضادة لها كحرارة الجو أو برودته بدلا من اعتداله، وجفاف الزرع والنبات بدلا من ترعرعه وازدهاره، ونقص الماء أو انعدامه بدلا من تدفقه وجريانه.

ومعنى هذا ان الباعث على صوغ الشعر ليس عادة ثابتة، بل ان الباعث عليه مجرد حالة ترافق عملية الابداع، التي قد تختلف من شاعر الى آخر. وقد سبق ابن قتيبة (ـ ٢٧٦هـ) حازما في طرق هذه الناحية بذكره أن كثيرا عزة كان اذا صعب عليه قول الشعر (بالرباع المخلية ، والرياض المعشبة) (٢) كما سبقه أيضا ابن رشيق (ـ٤٥٦هـ) بقوله في الفرزدق (كان اذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خاليا منفردا وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده" (٣) وبقوله في أبي نواس : " قيل

---

(١) السابق ص ٤١ تستجد : تتحول ميوله، لايخيم به: لايجذب اليه . يصوح : ييبس ويجف : يغيض : ينقص.

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء. تحقيق الأستاذ احمد محمد شاكر ص ١٩٧٧.

(٣) ابن رشيق : العمدة. تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبدالحميد ٢٠٧/١ ـ دار الجيل ـ لبنان ،بيروت.الطبعة الرابعة ١٩٧٢.

لأبي نواس : كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر؟ قال : أشرب حتى اذا كنت أطيب ما أكون نفسا بين الصاحي والسكران صنعت وقد داخلتني النشوة والأريحية" (١) .

فمن البين أن لكل شاعر من هؤلاء حالة خاصة لاتتفق مع الحالة الخاصة بالآخر. وكل واحدة منها تمثل مثيرا لديه قادرا على صوغ تجربته مهما كانتطبيعة هذه الحالة، سواء اكانت مقبولة مستساغة عند غير الشعراء أم كانت ممجوجة منفردة تأباها نفوسهم وأذواقهم. ولعل هذا المعنى يفسر قول هؤلاء النقاد ، وقول سبندر (Spender) عند حديثه عن صنعة القصيدة (The Making Of A Poem) ان الشاعر الانجليزي شيلر (Schiller) اعتاد أن يشم رائحة التفاح الفاسد ، في أثناء نظم القصائد. (٢)

ونتوافق هذه الأفكار مع تعليل حازم لهذه الظاهرة بقوله: " فان الطباع الناشئة ايضا على هذه الحال وان لم تكن في الأقاليم المعتدلة جارية مجرى تلك في سداد الخاطر والتنبيه لما يحسن في هيآت الألفاظ والمعاني وما لايحسن" (٣) مريدا بهذا التفسير التأكيد على أن مظاهر

---

(١) السابق : ١/٢٠٧.

(٢) الدكتور يوسف حسين بكار: بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، دار الاندلس ، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٣ - ص ٦٦ .

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤١.

" البيئات الطبيعية " المعتدلة لها دور فى تشكيل طاقة الخلق عند الشاعر ، وعلى أن البيئات الفاقدة لهذه المظاهر تتدخل أيضا بالايجاب فى تشكيله وتنميته. ولكن ثمة خاصية تميز طاقة شعراء البيئات الثانية، وهى " الاختصاص" بصواب الفعل الذهنى ، الذى يجعل الشاعر قادرا على التمييز بين الجيد والردىء من المعانى والألفاظ عند الصياغة.

والخبرة الثانية هي (الخبرة اللغوية) التى تكتسب عن طريق (التزعزع بين الفصحاء الألسنة ، المستعطين للأناشيد، المقيمين للأوزان) (١) أى ضرورة وقوف الشعراء الناشئين على الأداء اللغوى الفصيح الصادر عن فصحاء بيئتهم، والاصغاء الدقيق الى ماينشدونه من أشعار لهم أو لغيرهم، تدريبا لآذانهم على جوهر العمل الشعرى وهو (الوزن). فهذه الخبرة تعتبر مهيئا ضروريا بوجه قوة طبع الناشىء (لحفظ الكلام الفصيح وتحصيل المواد اللفظية، والمعرفة باقامة الأوزان) (٢) أى أن فعالية قوة الطبع الخلاقة رهن بتحقيق اجرائين متصلين من قبل الشاعر الناشىء، هما : حفظ المادة اللغوية واستيعاب أساليبها، فيتم له حينئذ الثراء اللغوى الذى يمكنه من التعرف على أساس الصنعة الشعرية وهو الوزن الذى ينبغى أن يوظف توظيفا ملائما للمعنى المستهدف.

---

(١) السابق : ص ٤١

(٢) السابق : ص ٤١.

والخبرة الثالثة هى (الخبرة النفسية) التى تشتمل على احساس بفعل آنى هو : (الاطراب) واحساس بفعل مستقبل هو: (الآمال) . فيجب ان يدرب الشاعر الناشئ على الاحساس بالاطراب أو بما هو كائن حاضر ليستوعب مثيرات الحنين النفسى الى من يحبه من البشر والى مايحبه من غيرهـــم وليتعرف على الاحساس بالانفعال الناتج عن الفراق والحرمان .وأن يدرب على الاحساس بالآمال ، أو بما هو متوقع حدوثه ، فيتعرف على كيفية توجيـــه رغباته وميوله، تجاه النافع من الأمور الممكنة والمتوقع وقوعها فى المستقبل ، والعمل على تحقيقها على أساس تلك الرغبات، يقول فى ذلك : "وكانـــت البواعث تنقسم الى أطراب وآمال ، وكان كثير من الأطراب انما يعترى أهـل الرحل بالحنين الى ما عهدوه ومن فارقوه، والآمال تتعلق بخدام الـــدول النافعة" . (١) فكلا الاحساسين يعد مظهرا لبواعث قوية تتضاف الـــى الطاقة الخلاقة عند الشاعر ، فتجعله يصوغ شعره صياغة حسنة.

ولايمنع هذا التقسيم الثنائى للبواعث من افتراض وجود قسم ثالـث، أو عدد من الأقسام لم يشر اليها حازم القرطاجنى، فثمة حالات كالحـزن والأسى والشجن والغضب والقلق في مقابل الاطراب، ومثل حـــالات اليأس والقنوط والتعاسة والاحباط والخوف، في مواجهة الآمال ، وهذه كلها بواعث تتضمنها الخبرة النفسية. ولكن من الممكن القول إن حازما لم يغتـه

---

(١) السابق : ص ٤١ - ٤٢.

ذلك، فربما قصد أن هذه البواعث المتروك ذكرها، وغير المنصوص عليها في نصه النقدي - تندرج تحت الوجه السلبي لكلا القسمين.

الخبرة الرابعة وهي (التوثيقية) ، التي تعنى ضرورة افادة قوة الطبع بالثقافة المتصلة باللفظ المستعمل، وبالمعرفة المتعلقة بالمعنى المصوغ، حتى يمكن ايجاد "الاطمئنان" النفسي لدى الشاعر والمتلقي معا. ذلك انه (لما كان القول في الشعر لايخلو من أن يكون وصفا أو تشبيها او تاريخا - احتاج الشاعر ان تكون له معرفة بنعوت الأشياء التي من شأن الشعر أن يتعرض لوصفها، ولمعرفة مجاري أمور الدنيا وأنحاء تصرف الأزمنة والأحوال، وأن تكون له قوة ملاحظة لما يناسب الأشياء والقضايا الواقعة من أشياء أخر تشبهها، وقضايا متقدمة تشبه التي في الحال) (١) أي أن من الضروري بعد حصول الشاعر على الخبرات الثلاث (البيئية - اللغوية - النفسية) المتقدمة أن يقف على الأدوات أو المعرفة الواضحة بـ (العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعاني) (٢) حتى تكون معرفته بالعلمين ركيزته التي تحقق للمعاني الشعرية الصحة وتجنبها الوقوع في الخطأ، وللألفاظ الدقة والسلامة ، والإحكام، فيستمد منها الوصف الملائم، والتشبيه المناسب والمعلومات الصائبة. وتمده بدورها

---

(١) السابق : ص ٤٢

(٢) السابق : ص ٤٠

ـ بالقدرة على " التمييز بين المتشابهات " من القضايا والأشياء فتنجو صيغه الشعرية من الخلط والاضطراب. (١)

ومن الملاحظ أن هذه الخبرات الأربع تلتقى على هدف واحد هو العمل على تكوين (الطبع الجيد) أو الموهبة الناضجة، ذلك ان تعبير الشاعر عما اختزنه طبعه من خبرات طبيعية ولغوية ونفسية وتوثيقية (تثقيفية)، يحتاج الى وعى بخصائص المعانى التى يزمع (الشاعر) استخدامها بما تنطوى عليه من مثيرات مختلفة، والى وعى بتقاليد الألفاظ التى تناسب هذه المعانى من حيث الملاءمة والتشابه بين الموقف المعنوى والصورة اللفظية.

وقد ربط حازم القرطاجنى تحقيق هذه الخبرات " بطيب البقعة

---

(١) فكرة "التمييز بين المتشابهات" قريبة من فكرة محمد بن سلام الجمحى فى كتابه" طبقات فحول الشعراء" الخاصة بالحث على ضرورة وجود الخبير المدرب الذى يفرق بين المتشابهات فى مجالات الأصوات والألوان والعينيات المحسوسة، فى مقابل الناقد المتخصص الذى يلاحظ الفروق بين الأشعار الجيدة والأشعار الرديئة. وان كانت فكرة حازم القرطاجنى ـ هنا ـ خاصة بصميم العناية الابداعية. وعلى أية حال فان هدف الفكرتين واحد وهو: اضافة الحس النقدى الى طاقة الشاعر المبدع.

ينظر: طبقات فحول الشعراء تحقيق الاستاذ محمود شاكر، ط. المدنى ١٩٧٤، ٥ـ٧. والدكتور محمود الربيعى: نصوص من النقد العربى ـ دار المعارف، الطبعة الاولى: صفحات ١٠، ١١، ١٢، ١٤.

وفصاحة الأمة، وكرم الدول، ومعاهدة التنقل والرحلة" (١)، قاصدا بذلك الربط بيان أن البقعة أو البيئة الطيبة التي نشأ الشاعر فيها واكتمل، تعينه على الوعي بالمعاني والتفنن فيها: " فقلما برع في المعاني من لم تنشئه بقعة فاضلة" (٢)، ومخالطة أهل الفصاحة تجعلهارعا في اختيار الألفاظ المناسبة. وتشجيع الدولة له بالمال والرعاية يدفعه على اجاده، والحرمان من الأحباء وفراقهم يدعو الى التفنن في التعبير عن ألم الفراق.

والتكوين الثاني: يختص بتنفيذ صنعة الشعر. فقد بحث حازم القرطاجني قوى هذه الصنعة أثناء عمل الشاعر في القصيدة من زاويتين: الزاوية الأولى هي التنبيه على أهمية القوى المشكلة لطاقة الشاعر الخلاقة وهي القوى " الحافظة - المائزة - والصانعة" أما عن " القوة الحافظة" فقد حدد مفهومها ودورها في التشكيل بقوله: " أن تكون خيالات الفكر منتظمة، ممتازا بعضها عن بعض، محفوظا كلها في نصابه، فاذا أراد مثلا أن يقول غرضا ما في نسيب أو مديح أو غير ذلك

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤٢.

(٢) السابق: ص ٤٢، من الواضح أن ربطه براعة الشاعر في توظيف المعاني بالبقعة الفاضلة المتميزة بالجمال يمثل اتجاها عاليا في عملية الابداع، ولكنه لايشكل قاعدة ثابتة ملزمة، ذلك ان للبقعة المضادة الرديئة دورها أيضا في الاجادة والبراعة، وهناك من الشعراء من اثارته المناطق الجرداء والبيئات الخالية من الجمال، مثل كثير والفرزدق كما تبين.

وجد خياله اللائق به قد أهبته له القوة الحافظة بكون الأشياء مرتبة فيها على حد ماوقعت عليه فى الوجود. فاذا أجال خاطره فى تصورها فكأنه اجتلى حقائقها. وكثير من خواطر الشعراء تكون معتكرة الخيالات غير منتظمة التصور. فاذا أجال خاطره فى أوصاف الأشياء وخيالاتها اشتبهت عليه واختلطت، وأخذ منها غير ما يليق بمقصده وبالموضع الذى يحتاج فيه الى ذلك". (١)

ويتبين من تحديده مفهوم هذه القوة ـ أنها ليست الا الذاكرة الواعية التى تخزن مايقع عليه بصره من صور متنوعة ، وما تشعر به نفسه من معان مختلفة تثيرها هذه الصور. حقا ان هذه الخاصية غير مقصورة على الشاعر، اذ هى انسانية عامة يشترك فيها الناس جميعا، ولكنها لدى الشاعر خلاقة أو صانعة أخيلة فنية، من حيث قدرتها على مد وعيه بصور الأشياء مرتبة ـ لا الأشياء نفسها ـ كما وقعت فى عالم الواقع والحقيقة، وأثناء استهدافه الغرض المعين، كالمديح والنسيب مثلا ـ فيتم له من ثم الوضوح والانتظام، فلا تختلط عليه الصور المخزونه ولا تتشابه.

وفى هذه الحالة يكون الشاعر " كالناظم الذى تكون عنده أنماط الجواهر مجزأة محفوظة المواضع عنده، فاذا أراد أى حجر شاء على أى مقدار شاء عمد الى الموضع الذى يعلم أنه فيه، فأخذه منه ونظمه

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤٢ ـ ٤٣.

وكذلك من كانت خيالاته وتصوراته منتظمة متميزة فانه يقصد بملاحظة الخاطر منها الى ما شاء فلا يعدوه"(١) وتهدف المقابلة بين ناظم الجوهر الخبير المتذكر لمواضع جواهره، والشاعر الشديد الحفظ ـ التأكيد على أهمية صفاء" الذاكرة الواعية"، التى تعين كلا منهما على الاختيار الصحيح فكما أن هذه القوة تجعل الجواهرى عالما بأماكن جواهره المحفوظة فينتقى منها فى سهولة لينظمه فى العقد على نحو من التلاؤم والمتناسب فانها كذلك توجه الشاعر الى " المخزون" من المعانى والألفاظ والصور، فيلتقط منه ما يتوافق مع غرضه الذى يقيم عليه شعره فى ترتيب وتنظيم بميزان خياله حينئذ بالصفاء.

واذا كانت قوة الذاكرة سببا فى صفاء الخيال الشعرى، فان "الخيال المعتكر" أو غير الصافى ليس الا ثمرة ذاكرة ضعيفة وحافظة واهية. ويشير حازم القرطاجنى الى ذلك بقوله" والمعتكر الخيالات كناظم تكون

---

(١) السابق ص ٤٣. تبدو هذه الفكرة قريبة جزئيا من فكرة عبد الله ابن المقفع، حيث تناول مسألة الجمع بين المتشابه والمتوافق فى عمل كل من ناظم الجوهر والأديب، فنص على أن عمل الأديب : " ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل، ووضع كل فى موضعه، وجمع الى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسنا" ص ١٢٦، ١٢٧ من كتابه (الأدب الكبير والأدب الصغير) دار الجيل ـ بيروت وهى قريبة أيضا من فكرة ابن طباطبا الذى أراد أن يكون الشاعر =

جواهره مختلطة، فاذا أراد حجرا على صفة ما تعب فى تفتيشه، وربما وقع على البغية فنظم فى الموضوع غير مايليق به، والمعتكر الخيالات فى هذه أجدر بطول السفر، لكون الاشياء التى فى الحس أوضح من التى فى التصور والذهن" (١) . فتنص هذه المقابلة على أن ضعف هذه القوة يؤدى الى صعوبة البحث عن المطلوب المناسب ، سواء أكان الباحث عنه جواهريا ام كان شاعرا. واذا تم العثور عليه فان كلا منهما ـ بسبب هذا الضعف ـ يوظفه فى غير موضعه. وتبدو المشكلة حادة بالنسبة للشاعر "المعتكر الخيال" ، حيث يكون اشد حيرة، لأن العناصر المشكلة لهذه القوة أقل وضوحا فى التصور والذهن، بمعنى أن الاحساس بوجودها الواقعى أبرز من الادراك الذهنى أو الفنى لها، وهذا يعنى أن ثمة قاعدة يجب أن تراعى فى هذه الحالة وهى الحذر من أن تكون "الاشياء

= " كناظم الجوهر الذى يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده بأنه يفاوت بين جواهرها فى نظمها وتنسيقها" .

ص ٢٠ من كتابه : عيار الشعر تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالاسكندرية طبعة ١٩٨٠.

ويبدو أن حازما القرطاجنى قد استند فى صوغ فكرته على هذين النصين ولكن يبقى انه جعل فكرته ـ رغم ذلك ـ نقطة انطلاق الى تناول اساس الابداع الشعرى وهو الخيال او التخييل.

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤٣.

التى فى الحس أوضح من التى فى التصور والذهن". (١)

وثمة قوة ثانية تنشأ عن فعالية " الذاكرة الواعية" ، وهى(القوة المائزة) ، التى تختص بالتمييز بين العناصر التى انتقاها الشاعرمن الذاكرة الواعية، حيث يعمد الى توظيف الملائم للغرض الشعرى المعالج بعد أن يفرق بين مايليق بهذا الغرض ومالايليق به، ومن ثم يكون قادرا على حسن الاختيار وسلامة الانتقاء من مخزون القوة الواعية ، يقول حازم: " والقوة المائزة هى التى يميز بها الانسان ما يلائم الوضع والنظم والأسلوب والغرض مما لايلائم ذلك، وما يصح مما لايصح". (٢)

ومن الطبيعى أن ينتج عن التعاقب السببى لهاتين القوتين، قوة ثالثة وهى (القوة الصانعة) ، فهى نتيجة أو استجابة للاجراء الذهنى فى القوة الحافظة والاجراء العملى فى القوة المائزة. وقد حددها بقوله : " هى التى تتولى العمل فى ضم بعض أجزاء الالفاظ والتركيبات النظمية

---

(١) السابق ص ٤٢، هذا التحذير يدنى فكرة حازم القرطاجنى - هنا - من فكرة المحاكاة، التى تحدث عنها أرسطو، حيث فرق أرسطو بين الحقيقة او الشئ الواقعى المادى ، صورة الحقيقة أو صورة هذا الشئ الواقعى المادى . والعمل الفنى (قصيدة، أو مسرحية) يعنى اساسا بتصوير الحقيقة - بعد أن تمثلها الذهن واستوعبها - فى صياغة جديدة مخالفة لما كانت عليه الحقيقة، او الواقع المادى.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤٣.

والمذاهب الاسلوبية الى بعض، والتدرج من بعضها الى بعض ، وبالجملة التى تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة". (١)

ويقصد بهذا التحديد أن يبين أن نشاط القوة الصانعة، يتعين فى نهوضها باحكام النص وربطه، عن طريق ضم بعض الصيغ الجزئية المنفردة الى صيغ جزئية أخرى تقتضيها وتتطلبها، وضم عدد من التراكيب والأساليب الى أخرى تتوافق معها، وعن طريق مراعاة تحقيق نمو الفكرة واتصالها التدريجى بما يعدها من افكار. ويكون الشاعر بذلك قد نفذ فكرة النقاد الذين سبقوا حازما القرطاجنى وهى تحقيق " التئام الشعر وترابطه" (٢) عقب الفراغ منه.

[ولم ينص حازم القرطاجنى على فعالية هذه القوى المتصلة المتعاقبة الا ليحدد عناصر " الطبع الجيد"، أو الموهبة الشعرية الخلاقة القادرة على صوغ الشعر صياغة جيدة. يقول : " وهذه القوى التى هى: الحافظة، والمميزة، والصانعة، وما جرى مجراها فى احتياج الشاعر أن

---

(١) مثل أبى هلال العسكرى : فقد قال : " وتخير الألفاظ وابدال بعضها من بعض بوجوب التئام الكلام (يقصد الشعر والنثر)، وهو من احسن نعوته، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها مقرونة بلفقها، فان تنافر الالفاظ من اكبر عيوب الكلام " ص ٤١ ، ٤٢من كتاب الصناعتين ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، وعلى محمد البجاوى ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ـ دار احياء الكتب العربية.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٤٣.

ولم ينص حازم القرطاجنى على فعالية هذه القوى المتعلة المتعاقبة الا ليحدد عناصر " الطبع الجيد"، او الموهبة الشعرية الخلاقة القادرة على صوغ الشعر صياغة جيدة. يقول : " وهذه القوى التى هى: الحافظة، والمميزة والصانعة، وما جرى مجراها فى احتياج الشاعر أن تكون موجودة فى طبعه ... هى المعبر عنها بالطبع الجيد فى هذه الصناعة". (١)

والزاوية الثانية فى تنفيذ صنعة الشعر هى تطبيق الشاعر مبدأ " الروية" الذى يعد عاملا مكملا لتجويد هذه الصنعة، لكونه ينشد تنقيتها وتصفيتها ليصل بها الى ذروة الكمال الفنى، وقد نص على هذا المبدأ فى مجال المقارنة بين المرتجل والمروى فقال : " ومآخذ القول فى الارتجال قريبة سهلة، لكون ضيق الوقت يمنع من بعد المذهب فى ذلك .. يتخيل المرتجل ما يريد أن يقوله فى وصف الشئ، ثم يأخذ فى نظم ذلك الشئ ..ويتسامح فى كثير مما يأتنق فيه المروى، ويقبل مما لا يقبله المهذب المنقح، لضيق الوقت عليه واتساعه على ذلك، فأما الروية فان المباحث فيها كثيرة والمذاهب بعيدة، لكون الزمان فيها يتسع لطلب الغايات المستطاعة من بناء الكلام على أصناف محاسن الألفاظ والمعانى ، وابداع النظم والتأنق فى احكام الأسلوب". (٢)

---

(١) السابق ص ٤٣.
(٢) ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

وتبين هذه المقارنة بين طبيعة عمل " المرتجل " وطبيعة عمل الشاعر الذى يقول الشعر بعد تأمل وطول نظر، التأكيد على مبـــدأ "الروية " لتجويد الصنعة الشعرية فى جميع مراحل عملية الابداع. كما تبين بهدفها الذهنى والعملى، أن ثمة أساسا لهذا المبدأ هو " التريث الزمنى " الذى نص عليه من قبل (فى القرن الثالث هـ) عدد من نقاد المشرق، مثل : بشر بن المعتمر فى صحيفته، والجاحظ فى البيـــان والتبيين، وابن قتيبه فى الشعر والشعراء(١)، وان كان حـــــازم

---

(١) نبه بشر بن المعتمر الأديب على مراعاة مبدأ "التريث الزمنى" عند التماس الصنعة الجيدة. قال " فان ابتليت بأن تتكلـــف القول، وتتعاطى الصنعة ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلـة، وتعاصى عليك بعداجالة الفكرة، فلا تعجل ولاتضجر، ودعـه بياض يومك وسواد ليلك، وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك، فانك لاتعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة أو جربت مـــن الصناعة على عرق ".

ينظر النص فى البيان والتبيين للجاحظ١/١٣٨، وكتـــاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ١٢٥. والعمدة لابن رشيـق ١/١٨٦، فهو ينص على استدعائه الطبع وترويضه عندما يتأبـى ويستعصى - بعامل الزمن، بأن تترك الصنعة فترة زمنية، حتى تستعاد هذه القوة المتأبية.

ويذكر الجاحظ هذا المبدأ فى معرض تصديه لقيمة الانتـاج الشعرى عند الشعراء" الحوليين "، فيقول :" من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث حولا كريتا وزمنا طويلا يردد فيهـا نظره ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعـــا =

القرطاجنى (فى القرن السابع هـ) قد عمد الى تقنينه وتقعيده بأسلوب المقارنة التوضيحية، فاذا كان " المرتجل " لشعر ما لايتوقف للنظر فيما قاله، لانه خاضع لمطلب انفعالى وسريع فى زمن قصير لايسمح بالنظر المتأنى والمراجعة البطيئة، فان الشاعر المروى خاضع لموقف مضاد يعمل فيه النظر فى عزلة ـ منفردا او مخالطا ـ فى زمن أطول. وهو فى هذه الحالة مرتبط بنهج يعمل فى ضوئه وهو البطء والتأنى فى صنعته.

ويترتب على اختلاف النهج عند الشاعرين ان الأول (المرتجل) " يتسامح فى كثير مما يتأنق فيه المروى" ويقبل كثيرا مما لايقبله المهذب لضيق وقته، وأن الثانى (المروى) يذهب الى غير ذلك، لكون الزمن فى صالحه " يتسع لطلب الغايات المستطاعة"، ومن ثم اتجه عمله فى النص الى بنائه على قيم جمالية بارزة، والتماسه الأسباب التى تحكم النص وتربطه وبعبارة حازم القرطاجنى بناء الشعر على " أصناف محاسن الالفاظ والمعانى ، وابداع النظم، والتأنى فى احكام الأسلوب".

= على نفسه" ، من كتاب البيان والتبيين ٢/ ٩، فهو هنا ينص على أن هذا المبدأ يتيح لشاعر الصنعة المتأمل أن يختبر صياغة القصيدة خشية التزيد والانحراف . وقد وسع ابن قتيبة هذه الفكرة وفصلها بذكره أن (الزمن) بوجهيه المحدد والمتصل، يتدخل فى تشكيل صياغة النص الشعرى والأدبى صياغة صحيحة، يقول : " وللشعر اوقات يسرع فيها أتيّه ويسمح فيها أبيّه، منها اول الليل قبل تغشى الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغذاء،ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير. ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ووسائل الكتاب" من الشعر والشعراء ص٨٧.

وقد قوى هذه الفكرة ونماها بوضعه خطة دقيقة للشاعر المروى، تتضمن مبادئ لتجويد النص الشعرى، وقد مهد لها بطرح أربعة مواطن للبحث وهى بالترتيب.

١ـ موطن قبل الشروع فى النظم

٢ـ وموطن حال الشروع

٣ـ وموطن عند الفراغ يبحث فيه عما هو راجع الى النظم

٤ـ وموطن بعد ذلك متراخ عن زمان القول، يبحث فيه عن معان خارجة عما وقع فى النظم لتكمل بها المعانى الواقعة فى النظم وتستوفى بها اركان الاغراض ويكمل بها التئام المقاصد" (١) فهو يرى أن الموطن الاول والثانى وهما " قبل الشروع" و " حال الشروع يعتمدان على قوة ضرورية اساسية فى بدء عملية الابداع الشعرى، وهى قوة " الخيال المبدع" (٢) "Creative Imagination"

أو التخييل ، التى استوعبت منجزات الخبرات الأربع (الطبيعية ـ اللغوية ـ النفسية ـ التوثيقية)، تلك المنجزات المنحصرة فى المعانى والأحاسيس والصيغ الجزئية والصور الكلية، التى جرت فى عالم الواقع، قصد الى تشكيلها فى صورة لغوية جديدة معادلة على اعتبار أن هذه القوة الفعالة الناضجة تجعل الشاعر" لايعنى بتصوير

---

(١) منهاج البلغاء ص ٢١٤

(٢) الدكتور محمود الربيعى ، فى نقد الشعر ص ١٩١.

ماهو كائن فعلا، وانما يهتم بتصوير ماينبغى أن يكون . أو بعبارة أخرى لايصور الحقيقة الحرفية، وانما يقدم لها مقابلا حيا ممثلا ادخل فى بـــاب الحقيقة من الحقيقة الحرفية نفسها" (١)

وأن الموطن الثانـــى وهو (عند الفراغ) الفورى من الصياغة، يعمد فيه الى استثارة القوة الملاحظة او (البصيرة الشعرية) (٢) Poetic Insight التى تـــدد الى جميع جهات النص ومختلف جوانبه، اعتمادا على تلك الخبرات وأن الموطن الرابع وهو (متراخعن زمان القول ...) أى انقضاء زمـــــن غير قصير على الفراغ من الصياغة - تتعاون فيه مع قوة الشاعر الملاحظـــة قوة أخرى وهى (القوة المستقصية)التى دقق بها فى تفاصيل الصنعـــــة وجزئياتها، رغبة فى اكتمالها والوفاء بكل جوانبها الفنية، مستعينا أثناء ذلـك بضروب المعارف ، وأنواع الثقافات الخاصة بصناعته. يقول فى ذلك :" فأما الموطن الاول فالغناء فيه لقوة التخيل، والموطن الثانى : الغناء فيـــه للقوة الناظمة، ويعينها حفظ اللغة، وحسن التصرف، والموطن الثالـث : الغناء فيه للقوة الملاحظة على كل نحو من الانحاء التى يمكن أن يتغيـــر الكلام البها، ويعينها حفظ اللغة أيضا، وجودة التصرف والبصيرة بطـــرق اعتبار بعض الالفاظ والمعانى من بعض. والموطن الرابع : الغناء فيـــه

---

(١) السابق : ص ٤٠

(٢) السابق : ص ١٩٠.

للقوة المستقصية الملتفته، ويعينها حفظ المعانى والتواريخ وضروب المعارف." (١)

ولكن الشاعر المروى من جهة الحرص على الوفاء التام بصنعته، مايلبث أن ينهض بخطوة أخيرة براها مكملة لخطته الموضوعة، حيث يعرض صنعته ـ التى فرغ منها ـ على نفسه، معطيا لها فرصة تصفيتها من الشوائب واصدار الحكم النهائى عليها، حتى تتحقق لها السلامة، فربما احتاج النص حينئذ الى (الحاقات) و (ابدالات) و (تغييرات) و (حذف) يقول : " ويعد استقصاء وجوه المباحث فى هذه المواطن الأربعة وكمال انتظام القصيدة المرواة ـ قد يعرضها الناظم على نفسه، فتظهر له بعرضها أمور كانت قد خفيت عنه، من الحاقات وابدالات وتغييرات، وحذف ، وقد يعرض للشاعر موضع يرى انه خلق بالتغيير او الزيادة فيتعذر عليه مايليق بالموضع من التغيير او الزيادة فيرجئ النظر فيه الى وقت آخر، وقد يعاود النظر فى ذلك المرار الكثيرة، فلا يتيسر له مايريد الا بعد معاودات كثيرة قد

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢١٤. لعل حازما القرطاجنى فى هذا النص د أفاد من فكرة التعديل والتوفيق التى تستخلص من نص ابن طباطبا الخاص بضرورة النظر بتأن فى القصيدة عقب الفراغ منها طلبا للكمال وتحقيقا للجودة. فقد حث الشاعر على أن" يتأمل فيما قد أداه طبعه وانتجه فكره تبقيفا لنقده، ويرم ما وهى منه"، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، ص ١٩ من كتاب عيار الشعر، فمن اليسير ملاحظة بعض العناصر التى افاد منها حازم القرطاجنى فى نصه، ولكن لايمكن انكار جهده فى توصيف هذه العناصر وسلكها فيما يشبه القواعد او القوانين، التى ظهرت فى حديثه عن خطته المقنعة.

تطرأ عليه (عند) معاودة النظر"(١)

وينص حازم القرطاجنى ـ استكمالا لهذه الفكرة ـ على الفائدة الفنية المتحصلة من هذا الجهد المتواصل الذى يبذله الشاعر المروى ، فيقول : " ومن أصحاب الروية من يجهد فى استجداد العبارات.. والتأنق فيها من جهة الوضع والترتيب .. وأعنى بالاستجداد : الجهد فى ألا يواطئ من قبله فى مجموع عبارة أو جملة أو معنى ، وبالتأنق طلب الغاية القصوى من الابداع فى وضع بعض اجزاء العبارات والمعانى من بعض وتحسين هيأت الكلام فى جميع ذلك فان العبارة ، اذا استجدت مادتها ، وتأنق الناظم فى تحسين الهيئة التأليفية فيها ، وقعت من النفوس أحسن موقع ، وكذلك الحال فى المعانى فتأمل ذلك"(٢)

فالفائدة المتحصلة من هدف الشاعر المروى تنحصر فى أمرين يؤدى كلاهما الى ثالث ، الأمر الأول هو " الابتكار" الذى يتمثل فى " استجداد " التعبير أو ابتداع أساليب جديدة وطريفة ، والاختصاص به ، مما يجعله متميزا فى ألفاظه ومعانيه عمن سبقه من الشعراء ، والأمر الثانى هو " تنمية الأداء اللغوى " على نحو سببى ، بأن يعمد الشاعر الى

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) السابق : ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

توليد بعض الصيغ الجزئية من بعض فى اطار العبارة والتركيب، بغرض تحقيق الترابط والاحكام لبناء القصيدة، مع مراعاته تجميل هذا البناء الكلـــــى أو الهيئة التركيبية بالمحسن اللفظى أو المعنوى، أو بهما معا، وينتج بالضرورة عن هذين الأمرين الأمر الثالث : وهو " استجابة المتلقى" فى النهايـــة للنص وتأثره به لوقوعه من نفسه أحسن موقع، بسبب هذا الجهد المتواصـل المتنوع، فتضيف هذه"الاستجابة" ـ حينئذ ـ الى النص الشعرى قيمـــة تضاف الى تكوينيه الأساسيين : " التخلق المسبب "، و " التنفيـــذ الواعى" على نحو ما تبين.

==========

المصـادر والمراجـع

١ـ أرسطو : فن الشعر : ترجمة وتحقيق د/عبد الرحمن بدوى النهضة المصرية ١٩٥٣.

٢ـ اليوت (ت ـ س) مقالات فى النقد الأدبى ، ترجمة د./لطيفة الزيات ـ الانجلو المصرية .

٣ـ اليوت (ت ـ س) مقالات فى النقد الأدبى ترجمة د/ ابراهيم حمادة ـ دار المعارف .

٤ـ بشر بن المعتمر : صحيفته ص ١/١٣٨ من كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، و ص ١٣٥ من كتاب الصناعتين لابى هلال العسكرى ، و ص ١/١٨٦ من كتاب العمدة لابن رشيق .

٥ـ الجاحظ: البيان والتبيين ـ تحقيق : عبد السلام هارون ، الخانجى بمصر ١٩٦٨

٦ـ حازم القرطبى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ـ تحقيق محمد الحبيب بن خوجه ، دار الغرب الاسلامى ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة.

٧ـ ابن رشيق : العمدة فى محاسن الشعر وأدبه ونقده. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل ـ بيروت ـ ط (٤) ١٩٧٢.

٨ـ ابن سلام الجمحى طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ط المدنى ١٩٧٤.

المصـادر والمراجـع

١- أرسطو : فن الشعر : ترجمة وتحقيق د/عبد الرحمن بـدوى . النهضة المصرية ١٩٥٣.

٢- اليوت (ت - س) مقالات فى النقد الأدبى ، ترجمـــــة د./لطيفة الزيات - الانجلو المصرية .

٣- اليوت (ت - س) مقالات فى النقد الأدبى ترجمة د/ ابراهيم حمادة - دار المعارف .

٤- بشر بن المعتمر : صحيفته ص ١/١٣٨ من كتـاب البيـــان والتبيين للجاحظ ، و ص ١٣٥ من كتاب الصناعتيـــن لابى هلال العسكرى ، و ص ١/١٨٦ من كتاب العمدة لابن رشيق .

٥- الجاحظ: البيان والتبيين - تحقيق : عبد السلام هـارون ، الخانجى بمصر ١٩٦٨

٦- حازم القرطبى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء - تحقيق محمـد الحبيب بن خوجه ، دار الغرب الاسلامى - بيـروت - الطبعة الثالثة.

٧- ابن رشيق : العمدة فى محاسن الشعر وأدبه ونقده. تحقيـق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل - بيـروت - ط (٤) ١٩٧٢.

٨- ابن سلام الجمحى طبقات فحول الشعراء تحقيق محمود محمد شاكر ط المدنى ١٩٧٤.

٩ـ ابن طباطبا العلوى : عيار الشعر، تحقيق د/ محمد زغلول. سلام ، منشأة المعارف بالاسكندرية ط ١٩٨٠.

١٠ـ عبد الله بن المقفع : الأدب الكبير والأدب الصغير. دار الجيل ـ بيروت.

١١ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء : تحقيق احمد محمد شاكر، ط (٣) دار التراث العربى ١٩٦٧

١٢ـ د./محمود الربيعى في نقد الشعر ، دار المعارف بمصر ط ١٩٧٣

١٣ـ د./ محمد الربيعى مقدمة كتاب : حاضر النقد الأدبى ـ مقالات فى طبيعة الأدب لـ جورج ستيرين واخرين ط ١٩٧٥.

١٤ـ د./ محمود الربيعى نصوص من النقد العربى طبعة (١) دار المعارف ١٩٧٧.

١٥ـ د./محمود الربيعى الناقد العربى فى مفترق الطرق مجلة العربى ـ الكويت ، عدد فبراير ١٩٨٦.

١٦ـ ابو هلال العسكرى : كتاب الصناعتين تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى ط(١) دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢.

١٧ـ د./يوسف حسين بكار. بناء القصيدة فى النقد العربى القديم فى ضوء النقد الحديث ـ دار الاندلس. بيروت ط ٢ ١٩٧٢.

========